

## مَحَارِقُ الْكِتَابِ بَحْثٌ فِي اسْتِهْدَافِ الْذَاكِرَةِ (مُقَارِبَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ تَصْنِيفِيَّةٌ)

### مَقْدَمَةٌ

مِنْ أْبْلَغَ مَا عَبَّرَ بِهِ الْأَدِيبُ الْأُرْجَنْتِينِي خورخي لويس بورخيس (Jorge Luis Borges) عَنْ فِرَادَةِ صِلَةِ الْإِنْسَانِ بِالْكِتَابِ قَوْلُهُ: "الْكِتَابُ هُوَ، دُونَ أَدْنَى شَيْءٍ، مِنْ أَكْثَرِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْإِنْسَانُ إِثَارَةً لِلدَّهْشَةِ. فَسَائِرُ الْأَدَوَاتِ الْآخَرَى امْتِدَادٌ لَجَسْمِهِ: فَالْمِجْهَرُ وَالْمَنْظَارُ امْتِدَادٌ لِلْبَصَرِ. وَالْهَاتِفُ امْتِدَادٌ لِلصَّوْتِ... وَالْمَحْرَاثُ وَالسِّيفُ امْتِدَادٌ لِلذَّرَاعِ. وَأَمَّا الْكِتَابُ، فَشَأْنُهُ شَأْنٌ آخَرٌ. إِنَّهُ امْتِدَادٌ لِلذَّاكِرَةِ وَالْخِيَالِ"<sup>(١)</sup>. وَإِذْ يَكُونُ الْكِتَابُ كَذَلِكَ فَهُوَ، فِي حَدِّهِ الْأَدْنَى، تَصْرِيفُ مَادِّيٍّ / وَرَقِيٍّ لِلْأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ وَصَوْنٌ تَرْكِيْبِيٌّ مُتَجَدِّدٌ لِلْإِنْسَانِ وَمَا حَوْلَهُ. وَلَيْسَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ الذَّهَابُ إِذْنًا إِلَى أَنَّ الْكِتَابَةَ نَشَاطٌ بِنَائِيٍّ يُعَادُ مِنْ خِلَالِهِ هَنْدَسَةُ الْأَشْيَاءِ وَالْفَضَاءَاتِ وَسَائِرُ مَا تَرْفَعُهُ الْعَيْنُ أَوْ الْإِحْسَاسُ إِلَى مَوَارِدِ التَّجْرِيدِ تَعْقُّلاً وَشُعُوراً. وَهِيَ، بِهَذَا، لَعَلَّهَا تَتَجَاوَزُ وَظِيفَةَ الْحِفْظِ أَوْ الْأَرْشِفَةَ (archivage). فَ"الْأَرْشِفَةُ" بِاعْتِبَارِهَا عُنْصَراً مِنْ عُنَاوِرِ الذَّاكِرَةِ مُقْصَدٌ مُبَاشِرٌ. وَهُوَ حَاصِلٌ لَا مُحَالَةً بِمَجْرَدِ فِعْلِ التَّدْوِينِ أَوْ نَحْوِهِ. لِذَلِكَ، لَا خِلَافَ بَيْنَ الْخَائِضِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَوْلَ الْعِلَاقَةِ الْعَلِيَّةِ بَيْنَ الْكِتَابَةِ وَالذَّاكِرَةِ. وَلَكِنَّ الَّذِي يَبْدُو مُثِيراً حَقّاً هُوَ عِلَاقَةُ الْكِتَابَةِ وَالذَّاكِرَةِ التَّكْوِينِيَّتَيْنِ مَعاً بِالْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ كَأَنَّ تَخْلُقَهُ الْكِتَابَةُ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقِ أَوَّلًا وَأَصْلاً، وَتَحْفَظُ سِيرَتَهُ فِي الْوُجُودِ ثَانِياً وَاسْتِثْبَاعاً. وَلَكِنْ، قَدْ تَمْتَدَّ يَدٌ إِلَى تِلْكَ الْكِتَابَةِ طَمَساً وَإِلَى الذَّاكِرَةِ عُدْوَاناً فَتُصَابُ قِصَّةُ الْإِنْسَانِ

علي الصالح مولى \*

في الوجود بضرر شديد. ورغبةً منا في دراسة هذه المسألة، عقدنا العزم على الاهتمام بالحرق آليّة اعتداء وطمس لا من هو حدث تدميريّ ماديّ فقط، ولكن باعتباره فعلاً مزاحماً لتاريخ الكتابة ومطارداً للذاكرة.

يؤدّي القيام بقراءة مسحّة في جغرافيّات الإتلاف وأزمنته إلى نتائج عديدة أبسطها أنّ محنة الكتابة ما تركت أرضاً إلّا وأبقت فيها ضحايا وما خرجت من زمان إلّا وتركت فيه آثاراً دالة عليها. وليس عسيراً على مَنْ أراد التنقّل في الزمان والمكان الظفر بكلّ ما يؤيّد أطروحة التلازم بين الكتاب وإحراقه (الذاكرة وطمسها)<sup>(٢)</sup>. ولما لم يكن بحثنا في الاستعراض والتجميع، فإننا سنكتفي بانتخاب أمثلة نبني عليها ما نروم الوصول إليه من مقاصد.

### مشهديّة الحرق: احتفالات وطقوس

نشير في مطلع هذه الدراسة إلى أننا فضّلنا استخدام صيغة "مَحارق" لسببين: فأما الأوّل، فما توفر لدينا من معطيات تاريخيّة تؤكّد أنّ حرق الكتاب لم يكن حدثاً استثنائياً في سيرة الإنسان. كان سلوكاً

عقدنا العزم على الاهتمام بالحرق آليّة اعتداء وطمس لا من هو حدث تدميريّ ماديّ فقط، ولكن باعتباره فعلاً مزاحماً لتاريخ الكتابة ومطارداً للذاكرة.

معهوداً ومقبولاً ومتواتراً. ونعتقد بأنّ عمليّات حصر المحروق من الكتابة تتجاوز كلّ الطاقات. وأقصى ما يمكن القيام به في هذا الصدد هو تعداد الأحداث الكبرى كمّا أو نوعاً. وهذا ما أقرّت به على سبيل المثال منظّمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو/ UNESCO) في دراسة أعدّتها لفائدتها جهات مختصّة<sup>(٣)</sup>. وساقّتها شساعة جغرافيّة الحرق وكثرتّه إلى التساؤل عن حجم التلف الذي لحق بمخزون البشريّة من الكتب والمخطوطات. فإنّ كان حرق مكتبة الإسكندريّة هو على الأرجح المثال الأكثر شهرة في التاريخ، "فكم من كنوز أخرى معروفة وغير معروفة قد ضاعت: في القسطنطينيّة وفي فرسوفيا وفي فلورنسا، أو [وهذا] حديثاً جداً في بوخارست وفي سانت بطرسبرغ وفي ساراييفو؟ إنّ القائمة، مع الأسف، لم تنته بعد"<sup>(٤)</sup>. وهو ما يعطي انطباعاً أوليّاً بأنّ الكتابة كانت باستمرار مصدر قلق وإزعاج، وأنّ ملاحظتها على هذا النحو تنزّل دليلاً على أنّ الصراع بين الحكمة والجهل أو بين السلطة والمثقف أو بين الحرّيّة والحجّر تمثل جزءاً أصيلاً من تاريخ الحضارة الإنسانيّة. وممّا لفتَ النظر أثناء تجميع مادّة هذا البحث أنّ الحرق كان في الغالب حدثاً مشهدياً احتفاليّاً يُدعى إليه الناس وينفّذ في الساحات العامّة. وأمّا السبب الثاني لاستخدامنا صيغة "مَحارق"، فقياسُ أجربناه على معجم قديم وإنّ عرّف استخدامات أخرى لاحقاً وهو "الهولوكوست" (Holocauste) الذي يحتمل دالتين متلازمتين وهما:

## الحرق كان في الغالب حدثاً مشهدياً احتفالياً يُدعى إليه الناس وينفذ في الساحات العامة.

الحرق الكامل من ناحية، والمقصد القداسيّ الإيمانيّ من ناحية ثانية. فهذه الكلمة التي تعني في أصلها اللاتيني (holocaustum) الحرق الكامل، أُشيعت بحمولة طقسية في اليهودية لتدلّ على القربان (sacrifice) يُتقرَّبُ به إلى الربّي شكل حيوان (عجل) يُحرق كاملاً على المذبح<sup>(٥)</sup>. (autel) ووجدنا فارناندوباييز (Fernando Baez) يُجري قياساً للغرض نفسه ولكن عبر النحت. فاستخدم عبارة "البيليوكوست" (bibliocauste) على النحو الذي جاءت فيه عبارة "هولوكست"<sup>(٦)</sup>. وقرّبا من هذا، استُخدمت عبارة «auto da fé» البرتغالية التي تدلّ في اللاتينية (actus fidei) على "الممارسة الإيمانية" غير أنّها عرّفت نوعاً من القيد الدلاليّ خاصّة في إسبانيا والبرتغال بدءاً من سنة ١٤٧٨ م من خلال آلية محاكم التفتيش<sup>(٧)</sup>. ولازمت كلمة «acto/actus» معنى الحدث المسرحيّ أو الاحتفاليّ الذي يشترط وجود جمهور لمواكبة العرض. وهكذا اقترنت عملية الحرق الجماعيّ الاستعراضيّ ذات البعد الإيمانيّ من مشهديّة القدّاس (messe).

ينقل لوسيانبولاسترون (Lucien Polastron) بعضاً من وقائع حرق الكتاب في ألمانيا النازية فيذكر أنّ الجانب الاحتفاليّ كان بارزاً ومستفزاً ويخضع لترتيبات دقيقة.

ففي ليلة العاشر من شهر ماي من سنة ١٩٣٣ انطلق الاحتفال في العاشرة ليلاً في ساحة الأوبرا ببرلين بظهور نخبة من الطلبة يرتدون أزياء موحّدة مخصصة بسهرة الاحتفال وهم يحملون في أيديهم المشاعل على إيقاع الموسيقى. وهبّ في المكان محرقة ضخمة. وكان يُتلى خطابٌ حربيّ قبيل رمي كلّ كتاب للنار على نحو: "ضدّ المادّيّة وصراع الطبقات، ومن أجل وحدة الشعب... أقدم إلى النار كتابات ماركس وكوتسكي" (Kautsky) وعلى نحو: "ضدّ الفساد الروحي... أقدم إلى النار كتابات سيغموند فرويد". وما أشرف الاحتفال على الانتهاء إلّا وقد ذهبت النار بما بين عشرين ألف وخمسة وعشرين ألف كتاب. وما مضى على هذا الاحتفال أربعون يوماً إلّا وقد بلغ عدد المحارق الاحتفالية ثلاثين محرقة.<sup>(٨)</sup>

## في بعض دلالات النار

عمليّات إتلاف الكتابة متنوّعة: بعضها عن قصد وبعضها دونه. بعضها بيد الإنسان وبعضها بيد الطبيعة كالزلازل والفيضانات. ولكنّها جميعاً معدودة ضمن ما أطلق عليه وليام بلادس (William Blades) "أعداء الكتاب".<sup>(٩)</sup> صحيح إنّ وليام بلادس اهتمّ بالجانب المادّي للكتاب وحصر المخاطر التي ترتبّص به (جعلها في ١٠ فصول أولّها النار وآخرها عبث الأطفال). لكنّ هذه المخاطر التي تتفاوت في الدرجة والأثر لا يمكن أن يبقى مفعولها محصوراً في المستوى المادّي فقط. فالكتاب مجرد حامل (support). والمحمول في حالات

الاعتداء على الكتاب هو المستهدف في المقام الأول. لذلك يعسر فك الارتباط بين إتلاف مادية الكتاب وإتلاف ذاكرة المعرفة. ورغم أن المخاطر التي تُحدّق به متنوّعة، فقد احتلّت النار الصدارة. وإن كنا لا ندري على وجه التحديد كمية ما أتلّفته النار قياساً بغيرها، فالواضح أنها كانت تتقدّم على ما سواها من عناصر الإتلاف في الترتيب. وحضورها الكثيف يسوقنا إلى القيام بإطلالة سريعة على رمزية

النار. وستجاوز من باب الاختصار البحث في علاقة النار بالجسيم، وفي إحياء العقاب المتولّدة عن هذه العلاقة. وسنكتفي بالتوقّف عند بعض دلالاتها ورموزها

كما جاءت في بعض الدراسات ذات النزعة التحليليّة النفسيّة أو الإناسيّة نظراً إلى ما توفّره من إمكانيات تأويليّة مهمّة.

يقول غاستون باشلار (Gaston Bachelard) متفحصاً النار باعتبارها مبدأ كونياً من مبادئ تفسير الأحداث: "إن كان كل ما يتغيّر ببطء يُفسّر بالحياة، فإن كل ما يتغيّر بسرعة يُفسّر بالنار"<sup>(١٠)</sup>. والمقابلة التي أقامها بين الحياة والنار من جهة، والسرعة والبطء من جهة ثانية تحيل مباشرة على مركزيّة النار في صناعة العدم. فالحياة التي تنشأ على مهل والتاريخ الذي يتمطّ اتّساعاً بدبيب الحياة فيه يمكن أن يندثر على

عجل بعنصر النار. وفي التنشئة الاجتماعيّة والدينيّة والعاطفيّة تحتلّ النار في مخيلة الإنسان مكانة مهمّة. وهي غالباً ما تتضمّن المبدأ ونقيضه. غير أنّ مهابتها تستيق سائر القيم التي أُعطيت لها. فالطفل، من خلال العرّض الذي بسّطه باشلار، يدنو من النار بحثاً عن الدفء. لكنّ الأب الذي يراقبه يسرع إليه فيضربه على يديه كلّما اقتربنا من النار. ويعلّق باشلار على هذا المشهد قائلاً: "النار تصفع دون أن تكون في حاجة إلى أن تحرق"<sup>(١١)</sup>.

ويستخلص من هذا أنّ المنع الاجتماعيّ كان منذ البدء سلوكاً لا يفارق التعامل مع النار. وهو ينمو بنمو الشخصية الاجتماعيّة. فبانتقال

الإنسان من طور النضج الماديّ البسيط إلى طور التجريد والعقلنة تنتقل النار من حسّيتها المباشرة إلى الرمز.<sup>(١٢)</sup>

وبناء على هذا، يمكن القول إنّ النار وهي تُتخذ وسيلة مبجلة في إتلاف الكتب، لا تُنجز هذا الدور فقط. إنّها تمارس نوعاً من الحجر يتأذى منه أصحاب الكتاب كُتّاباً وقراء. والعقوبة بالإحراق لا تكون فقط لبلوغ المعاقب درجة العذاب القصوى ولكن أيضاً للإشعار بأنّ هناك مجالات معيّنة لا يمكن للكتابة أن تدوّنها ولا يمكن للذاكرة أن تحتفظ بها. فالمنع الاجتماعيّ الذي رمزت إليه النار نستطيع تحويله

ضدّ الماديّة وصراع الطبقات، ومن أجل وحدة الشعب... أقدم إلى النار كتابات ماركس وكوتسكي (Kautsky)، وعلى نحو: "ضدّ الفساد الروحي... أقدم إلى النار كتابات سيغموند فرويد".

إلى منع ثقافي. وبهذا يعبر عنصر النار عما يُطلق عليه "الممنوع التفكير فيه" (l'impensable) لا على مستوى الفرد فقط ولكن (وهذا هو المهم) على مستوى الجماعة. ومن هنا نفهم بعض دلالات الحرق في الساحات العامة وبحضور الناس. وربما كان الإيحاء بما بين النار والجحيم من صلات يعزّز المعنى القداسي المصاحب للحرق كما سبق البيان. فيصبح المعاقب بالنار الأرضية صورة مصغرة للإله المعاقب بالنار الأبدية. ويصبح ما

كان سبباً في إحراق الكتاب كآته "الخطيئة الكبرى" لا تزول إلا بالنار عقاباً وعذاباً.

فلمثل هذا إذن يمكن أن نفهم إلى حد كبير حضور النار حضوراً مركزياً

وطاغياً في عمليات إتلاف الكتب وفي رواية وقائعها على حد سواء. كما يمكن أن تكون عمليات الحرق بمثابة استعادة لاشعورية لبعض وظائف النار الأسطورية والمجازية. فمن إيحاءاتها، اللذة بمعناها الشبقي (sens libidinal). ومنها أيضاً أن بروموثيوس (Prométhée) لما سرق النار كما في الميثولوجيا اليونانية فإنما فعل ذلك ليتنصر على ضعفه وليرتقي إلى مصاف الآلهة. فمن ملك النار ملك القوة والبقاء. ولا غرابة حينئذ أن تكون الجهة الأمرة بالحرق مستشعرة معني اللذة والسلطة برَجْعِهما المندفن في أعماق الإنسان الأول.

لم يكن الحرق مطلباً يُقصد إليه حصراً. ولم تكن

العقوبة بالنار مستنفدة أغراضها في حدود الزمان والمكان اللذين تمت فيهما. ومشهدية الحرق التي ابتدعها "أعداء الكتاب" إنما كانت ليكون حدث الإحراق قصة تُداول وتاريخاً يُروى وذاكرة وعبرة. فقد كان يتشكل للحرق تاريخ تماماً كما كان يتشكل للكتاب تاريخ. وذاكرة الحرق جزء من الكتاب وقد صار ذكرى. ومما يلفت الانتباه في هذا الصدد أن التنازع بين الكتاب ذاكرة والحرق طمساً كان جزءاً من صراع طويل من أجل السيطرة أو التأثير أو

الإخفاء. وقد يكون إحراق الكتاب سبيلاً إلى بقاء ذاكرة ما حية على حساب إتلاف ذاكرة أخرى. وهذا يعني أن للكتاب سلطة تصنع في وجدان الناس

وعقلهم الخوف أو الإزعاج وتبرر مسعاهم إلى الحرق. ومثلما يكون هذا المسعى دفاعاً عن الكتاب وإن أحرق يكون انتقاماً منه.

### الدوافع السياسية للحرق

"هناك ... حيث يحرقون الكتب، سوف ينتهون [لا محالة] بحرق الناس": هذا نص محفور في لوحة قرب معلم تاريخي في ساحة بابل بمدينة برلين الألمانية. ويُنسب إلى هاينريش هاين (1797-1856). نطق به بعيد احتفالاً قامه مجموعة من الطلاب الألمان القوميون بمناسبة إحراق كتب عدوها رجعية لا تخدم مطالب

"هناك ... حيث يحرقون الكتب، سوف ينتهون  
«لا محالة» بحرق الناس": هذا نص محفور  
في لوحة قرب معلم تاريخي في ساحة بابل  
بمدينة برلين الألمانية. ويُنسب إلى هاينريش  
هاين

الوحدة الألمانية يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٧. ومن بين ما يسكن هذا النص من معان وأبعاد الانتباه إلى أنّ الكتابة هي الإنسان عينه وإنّ تَخَارَجًا ماديًا. فَتَعَقَّبُ الكتاب إنّما هو مقدّمة لتعقّب صاحبه. وهو في الحالين دليل على انعدام التربية على الاختلاف والتعدّد. والتقطت إيزابلا كوسنيك (Isabelle Kusnik) هذا المعنى وذهبت به بعيداً مبديةً أسفها لأنّ نصّاً آخر منسوباً إلى فولتير (Voltaire) 1694-1778: "أنا لا أوافقك الرأي فيما تقول. ولكن سأدافع عنك حتّى الموت كي تقول ما تريد" مازال إلى حدّ الآن لم يعرف طريقه إلى واجهات جميع مدارس العالم وكلّ الملاعب وجميع الأعلام ومبادئ دساتيرنا<sup>(١٣)</sup>. وهو أسف مبنيّ على نزعة إنسيّة شفّافة تعتبر أنّ عمليّات الإحراق إنّ هي إلّا سلوك ثقافيّ/سياسيّ محكوم بعقده الإلغاء من جهة، وبصناعة الإتيّة الواحدة بما في الإتيّة من أنانيّة مدمّرة.

يعود المؤرّخون المهتمّون بهذه المسألة إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرنين ونصف تقريباً حيث برز في بلاد الصين إمبراطورها الأوّل كين شي هوانج<sup>(١٤)</sup> (Qin Shi Huangdi). إنّهُ الحاكم الذي تُنسبُ إليه مآثر كثيرة مثل توحيد هذا البلد وتنظيم عمل مقاطعاته وتطوير أدوات إنتاجه. وأمّا سور الصين العظيم، فإنجازته الذي لا

كلّما تقدّمنا في الزمان صعداً وأوغلنا في المدنية والتحضّر ... استبدّ بالتمدّن الرغبة الأبدية في الهدم والإتلاف.

يُداني. غير أنّ كين شين هوانج وهو يؤسّس مجد الصين كان يبيّن لنفسه مجدّاً خاصّاً. وكانت له أدوات يحمي بها سلطانه ويحفظ بها ذكره، منها قراره أنّ يُتلف كلّ أثر سابق وأنّ ينكّل بمنّ يُشرك معه في المجد غيره. ولهذا كانت الكتب ضحيّة الأولى. فقد أمر بإحراقها<sup>(١٥)</sup>. بل أمر بإحراق ٤٦٠ رجلاً ممّن راهنوا على الكتاب ذاكرة للسابقين فاحتفظوا بما تحت أيديهم<sup>(١٦)</sup>. من هناك ومن ذاك الزمان بدأت معركة الكتابة والذاكرة واستمرّت بلا هوادة. بل لعلنا كلّما تقدّمنا في الزمان صعداً وأوغلنا في المدنية والتحضّر وابتكرنا للذاكرة ما يساعدها على البقاء حيّة كالمطابع وفنون حفظ المخطوطات وانتشار المكتبات الوطنية والعموميّة والجامعيّة والخاصّة استبدّ بالتمدّن الرغبة الأبدية في الهدم والإتلاف. فقد جاء في دراسة "اليونسكو" المذكورة أعلاه أنّ تدمير الكتاب عرف في القرن العشرين توسّعاً وحده لم يسبق للتاريخ أن عرف مثلهما<sup>(١٧)</sup>.

ومن الأمثلة التي ظلّت الذاكرة تحتفظ بها محرقة الكتاب الشهيرة والمرعبة في الأرجنتين. ف"في يوم ٢٦ جوان ١٩٨٠ في ظلّ حكم دكتاتور الأرجنتين خورخي رافاييل فيديلا (Jorge Rafael Videla) أشرفت وحدات من الجيش على تنفيذ محرقة ضخمة للكتب. وما كانت المحرقة مجرد إشعال للنار في أطنان من الورق ونحوه. كانت الرسالة أبلغ من ذلك. فالنزعة الطغيانية التي تتحكّم في تصرّفات هذا الإمبراطور كانت توجّه أفعاله إلى محاصرة كلّ فكر وإنّ أخذاً بالشبهة. وليس أشدّ إيلاماً للفكر من طمس ذاكرته. وذاكرته الكتاب.

عمر" (٢١). ولَمَّا تَمَّ التَّجْمِيعُ، وَضِعَ كُلُّ ذَلِكَ فِي صُحُفٍ وَبَقِيَتْ فِي عَهْدَةِ عَثْمَانَ ثَمَّ فِي عَهْدَةِ عُمَرَ مِنْ بَعْدِهِ ثَمَّ فِي عَهْدَةِ حَفْصَةَ إِلَى أَنْ قَدِمَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانَ عَلَى عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (٧٤ق.هـ - ٥٣هـ) وَقَالَ لَهُ: "أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْقُرْآنِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى" (٢٢). فَأَمَرَ عَثْمَانَ بِنَسْخِ الصُّحُفِ الَّتِي عِنْدَ حَفْصَةَ فِي الْمَصَاحِفِ. وَلَمَّا نُسِخَتْ أَمَرَ بِكُلِّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ وَمَصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ" (٢٣). وَدُونَ التَّعَمُّقِ فِي نَتَائِجِ خُطَّةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَدَوْرِهَا فِي نَشْوءِ نَوْعٍ مِنَ الْأَرْتُوذُكْسِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ، أَوْ فِي تَشْيِيدِ بَعْضِ مَرْتَكِزَاتِ الدَّوْلَةِ وَاحْتِكَارِهَا الْمَشْرُوعِ لِلنَّصِّ الَّذِي يَصُوغُ هَوِيَّتَهَا، يَبْدُو أَنَّ حَرْقَ نصوصِ قَرَائِنَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَجْلِ نَصِّ قُرْآنِيٍّ وَاحِدٍ يَدْخُلُ فِي سِيَاقِ اسْتِرَاطِيَجِيَّاتٍ تَوْحِيدِ مَصْدَرِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَتَوْحِيدِ نَسِيجِ الْجَمَاعَةِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ. وَلَعَلَّهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ لَمْ تَجِدْ هَذِهِ الْخُطَّةُ مَعَارِضَاتٍ تُذَكِّرُ.

وَمَا يَنْبَغِي مِلَاحَظَتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَنَّ الْبَحْثَ عَنْ ضَمَانَاتِ بَقَاءِ الْقُرْآنِ نَصًّا أَعْلَى كَانَ يَمُرُّ لَا بِحَرْقِ الْمُتَعَدِّدِ مِنْهُ فَقَطْ وَلَكِنْ أَيْضًا بِحَرْقِ مَتُونٍ أُخْرَى فِيهَا مَعَارِفُ

لِلذِّكْرِ، فَمَا قَامَ بِهِ جُنْدٌ فِيدِيًّا وَأَعْوَانُهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْحَزِينَةِ كَانَ اجْتِنَاءً مُتَعَمِّدًا لِلذَّاكِرَةِ وَلِكُلِّ نَزْعَةٍ ثَقَافِيَّةٍ مُخَالَفَةٍ يُسْتَشْفَى مِنْهَا تَهْدِيدٌ لِلسُّلْطَةِ. وَقَدْ أَحْسَنَ مِمْبُوحِيَارِ دِينَلِّي (Mempo Giardinelli) التَّعْبِيرَ عَنْ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ فَقَالَ مُسْتَذَكِّرًا: "حَمَلَتْ [شَاحِنَاتُ الْجَيْشِ] ٢٤ طَنًّا مِنَ الثَّقَافَةِ وَالْمَعْرِفَةِ... وَهَكَذَا أُحْرِقَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ... وَأُحْرِقَ مَعَهَا سِنَوَاتٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْبَحْثِ وَالْأَحْلَامِ وَالْخِيَالِ وَالشَّعْرِ" (١٨). وَقَدْ تَجَاوَزَ بِشَاعَةِ الْمَحْرِقَةِ الْكِتَابِ وَالذَّاكِرَةِ وَالثَّقَافَةِ عُمُومًا لِتَصْبَحَ عَلَامَةً عَلَى انْقِضَاضِ الْوَطَنِ عَلَى نَفْسِهِ تَخْرِيْبًا وَتَدْمِيرًا: "أُحْرِقَتْ الْأَرْجَتَيْنِ [هَذِهِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي أَشَدِّ صُورِهَا] رَعْبًا وَاجْرَامًا قِسْمًا مِنَ الْأَرْجَتَيْنِ [تِلْكَ الَّتِي تَجَلَّتْ فِي أَكْثَرِ صُورِهَا] بِهَاءٍ وَحَوْلَتْهَا إِلَى رِمَادٍ" (١٩). وَقَدْ يَصِلُ الطَّغْيَانُ فِي بَعْضِ السِّيَاسَاتِ الدَّوْلِيَّةِ إِلَى شَنِّْ حُرُوبٍ يَذْهَبُ فِيهَا الْكِتَابُ فِيمَنْ ذَهَبَ مِنْ ضَحَايَاهَا. فَقَدْ وَقَفَ فِرْنَانْدُو بَايَز (fernando Baez) الْمُنْتَمِي إِلَى إِحْدَى لُجَانِ تَقْصِي دِمَارِ الْمَكْتَبَاتِ وَالْمَتَاحِفِ ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ سَنَةِ ٢٠٠٣ فِي بَغْدَادٍ مَذْهُولًا أَمَامَ مَا رَأَى. وَدَوَّنَ مَا يَلِي: "مَا عَادَ لِذَاكَرَتِنَا مِنْ وَجُودٍ. تَحَوَّلَ مَهْدُ الْحَضَارَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْقَوَانِينِ رِمَادًا" (٢٠).

### الدوافع الدينيَّة للحرق

قِيلَ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (٤٠ق.هـ - ٢٣هـ) أَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (٥٠ق.هـ - ١٣هـ) بِجَمْعِ الْقُرْآنِ فَعَمِلَ بَعْدَ تَرَدُّدٍ: "وَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَاجِعُنِي فِي ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرِي وَرَأَيْتُ ذَلِكَ الَّذِي رَأَى

التَّخْلَصَ مِنْ كُلِّ مَا حَوَتْهُ مَكْتَبَةُ  
الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَافَقَ الْإِسْلَامَ أَوْ عَارِضَهُ يُوَكِّدُ  
أَنَّ الْإِتِّجَاهَ الْغَالِبَ عَلَى الْحَضَارَاتِ ذَاتِ  
الْأَسَاسِ الدِّينِيِّ هُوَ النُّفُورُ مِنَ الْمَخَالَفِ  
وَعَدَّهُ مَزَاحِمًا يَهْدِدُ نَقَاءَ الثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ.



أخرى سواء كانت منسجمة مع المحتوى القرآني أو متعارضة معه. كان بناء المعرفة الخاصة بالمسلمين وتحصين الهوية الآخذة في التشكّل يقتضيان ألاّ تعتني العرب "بشيء من العلوم إلاّ بلغتها ومعرفة أحكام شريعته... وذلك منهم صوناً لقواعد الإسلام وعقائد أهله عن تطرّق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ والإحكام، حتّى يروى أنّهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد"<sup>(٢٤)</sup>.

وقصّة حرق مكتبة الإسكندرية مثال جيّد على هذا. ورغم أنّ نسبة حرقها إلى الخليفة عمر بن الخطّاب ليست ثابتة إنّ لم تكن مجرد ادّعاء يدخل في إطار تشويه الخصم بما ليس فيه، فإنّنا إذ نتخذها مثلاً فلاّنها تصلح للتعميم واستخلاص النتائج الكليّة منها. فالعبرة ههنا ليست بصدقيّة الخبر في ذاته وإنّما بالامتدادات الرمزيّة التي تصدر عنه. فاستقدامنا لها إذن يأتي في سياق أوسع وهو دراسة علاقات التنافر والصدام بين الحضارات بسبب الاعتقاد بأنّ ما عند الآخر ضلال وما عند الأنا هدى. فمَن قصّد إذن إلى ترويج قصّة عمر بن الخطّاب ومكتبة الإسكندرية كان يُحرّكه إمّا منطق الأرثوذكسية

النصّائيّة كما سبق البيان أو منطق الاختصام معها. وهذان المنطقتان معاً يتنزّلان في سياق ما نحن بصدده وهو أنّ الحرق آليّة إلغاء المتعدّد/المختلف من جهة، وتثبيت إطلاقيّة

الواحد من جهة ثانية.

يقول الخبر إنّ عمرو بن العاص، والي مصر، استشار عمر بن الخطّاب في شأن هذه المكتبة فكان ردّه: "وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى. وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليه. فتقدّم بإعدامها"<sup>(٢٥)</sup>. إنّ التخلّص من كلّ ما حوّته مكتبة الإسكندرية وافق الإسلام أو عارضه يؤكّد أنّ الاتجاه الغالب على الحضارات ذات الأساس الدينيّ هو النفور من المخالف وعدّه مزاحماً يهدّد نقاء الثقافة الدينيّة. فالاعتقاد بأنّ تاريخ الإنسانيّة الفكريّ الذي تكوّن بالتراكم والتطوير آماداً من بعد آماد هو مجرد جاهليّة ينبغي التخلّص منها يبدو أنّه لا ينسجم مع فكرة كونيّة الحضارة الإنسانيّة نفسها التي تكتسب معمارها بالتدريج طوراً بعد طور. فالتضحية بمخزون مكتبة الإسكندرية تضحية بذاكرة هذه الحضارة المتدرّجة.

وأما صورة إتلاف هذا المخزون الضخم فتتمثّل في أنّ عمرو بن العاص "شرع في تفريقها على حمّامات الإسكندرية وإحراقها في مواقيدها. فاستيقدت في مدّة

ستّة أشهر"<sup>(٢٦)</sup>. إنّ ترحيل ما احتوته المكتبة إلى مواقد حمّامات الإسكندرية يكشف عن مدى الاستهانة بتلك الذاكرة من ناحية، وعن ضخامة موروث العقل الإنسانيّ الذي "استحّم" أهل

في إحراق تري جونز المصحف رسالة مفادها أنّ هذا النصّ الذي بنى ذاكرة المسلمين ونحت خصائصها الكليّة كان السبب المباشر في تعرّض الولايات المتحدة الأميركيّة للهجوم وتدمير بُرجيها الشهيرين.



الإسكندرية بفضل ناره الموقدة من جهة ثانية في ما يشبه الاغتسال من الآثام.

إنَّ القرآن، هذا النصُّ الأعلى نفسه، الذي أُحرق متعدداً ليلقى واحداً والذي أُحرق ما سواه من المتون حتَّى لا تُزاحمه بـ "إثمها" لم يَسَلَم، اعتباراً لمنزلته ورمزيته، خارج مجال نفوذه الإيماني والمذهبي من تحدّيات كبرى. والأمثلة في ذلك كثيرة نكتفي منها بواحد: إنَّ ما أقدم عليه القسّ الأمريكي تيري جونز (Terry Jones) زعيم جماعة مسيحية أصولية في إحدى كنائس فلوريدا من إحراق لنسخ من القرآن كان بمناسبة تخليد ذكرى الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

ولا ريب في أن تخليد هذه الذكرى كان يمكن أن يكون بطرق أخرى كثيرة منها على سبيل المثال فتح قنوات الاتصال الأكاديمي والثقافي والدبلوماسي بين المجالين العربي الإسلامي والغربي المسيحي. فاتجاهات العنف في هذه الحضارة أو تلك يمكن معالجتها بتنمية قيم الاعتدال والتسامح والتعارف بين الشعوب. وأما مواجهتها بما هو من جنسها فلن يزيد العلاقات بين المجالين إلا تآزماً. وتيري جونز

حين سلك سبيل الحرق كان أنموذجاً لثقافة غير متسامحة في المطلق وأنموذجاً لجماعات متديّنة تفهم نصوص غيرها فهما سطحياً وعدوانياً. ولما كان تيري

جونز يطمع في إحداث "اليوم العالمي لحرق القرآن"، كان يصدر دون أدنى شك عن رؤية اختزالية وتحريفية لمنزلة النصوص العليا في الحضارات الكبرى ووظائفها الأساسية وكان أيضاً وهو يوسّع جغرافية المحارق ينزع إلى إفساح المجال أمام اندلاع معارك حضارية هدامة.

لم يكن اختياره القرآن للحرق اعتباطاً إذن. فقد أحصى عشرة نقاط في الإسلام نصّاً وعقيدة اعتبرها انحرافات تاريخية وأخلاقية وثقافية<sup>(٢٧)</sup>. ورأى أنّها كافية لاتخاذ قرار الحرق. إنَّ في إحراقه المصحف رسالة مفادها أنّ هذا النص الذي بنى ذاكرة المسلمين ونحت خصائصها الكلية كان السبب المباشر في تعرّض الولايات المتحدة الأمريكية للهجوم وتدمير بُرجيها الشهيرين.

وبهذا يصبح الحرق آلية لنسف ذاكرة كاذبة في مستوى التاريخ ووسيلة دفاع في وجه التمدد الإسلامي المستمر المملوء بالمخاطر: "إننا نعتقد بأنّه ينبغي ألا نتراجع أمام مخاطر الإسلام"<sup>(٢٨)</sup>.

أحرق تيري جونز القرآن لأنّه، كما يرى، "نصّ ملئ بالأكاذيب". وألف من بعد الحرق كتاباً بيّن فيه "الشُرور" التي في القرآن. ولا ندري على وجه التحديد إن كان تيري جونز مقتنعاً

بأن كتابه "الإسلام ينتمي إلى عالم الشر" (Islam Is of the Devil)<sup>(٢٩)</sup> يستطيع أن يسد فراغ الحرق أم لا، غير أنّنا نرجح أن مثل هذا السلوك يعطي انطباعاً

تواتر خبر (لا نخاله إلا موضوعاً) مفاده أنّ "إحياء علوم الدين" انتقم من حارقيه بأن لَبَّى الله دعوة الغزالي وقد جاءه نبأ ما فَعَلَ بكتابه: "اللهم مرّق ملّكهم كما مرّقوه وأذهب دولتهم كما أحرّقوه"

وهكذا يصبح الحرق وسيلة عند التوحيدي  
يُكْرَمُ بها كتبه ويصونها من الوقوع بين  
يدي أناس لا يفقهون حقيقة العلم الذي  
تحويه: "شقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون  
بها ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها"

### الدوافع المذهبية للحرق

تجنح بعض الدراسات الحضاريّة/ الإنسانيّة إلى تفسير التمدّن بنمط الحياة المُحتَدَى. فإنّ اختارت أمة من الأمم المدينة بكلّ ما تحيل عليه مستقرّاً لها ومركزاً لنشاطها وحياتها ازدهرت وتأنّقت ورقّت. وإنّ اختارت التبدّي جفّت طباعها وقلّ إحساسها بالحياة ونفرت من الفكر في تعقيداته وغموضه. ودولة المرابطين في الأندلس (٤٨٤هـ-٥٨٠هـ) مثال يمكن أن نعتمده ونحن ننظر في محرقة أخرى من محارق الكتاب. نقصد إحراق "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي. إنّ هذا التفسير الحضاريّ/ الإنسانيّ يجد تأييداً له في البيئة المرابطيّة. فالمختصّون في الحضارة الأندلسيّة يُجمعون تقريباً على أنّ دولة المرابطين تنهض على نظام سياسيّ ومذهبيّ تسيطر عليه عقلية هي أقرب إلى التبدّي منها إلى الحضر: "إنّ المرابطين المغاربة البربر كانوا أقرب في طباعهم إلى البداوة والجفاء"<sup>(٣١)</sup>. ويتجلّى ذلك في نمط حياة الغالب عليها البساطة والشدة والكفاف والاستقامة. وقليلاً ما كان الناس ينصرفون في ظلّ هذا النمط المتشدّد إلى التفسّح العقليّ والجماليّ وإلى

يرقى إلى درجة اليقين وهو أنّ الحضارات المتأسّسة على نصوص كبرى/ عليا تحتاج باستمرار إلى حماية نصوصها وذلك بتجديد قراءتها وتيسير عمليّات التواصل في بينها بدل إتلاف نصوص غيرها.

لذلك نرى أنّه إنّ تناولنا من منظور حضاريّ وأخلاقيّ ما قام به تيري جونز وهو يحتفل بالحرق يمكن أن نلخص المسألة في كونه يعبر عن خلل ما في عمليّات التواصل بين الجماعات الدينيّة الكبرى في العالم. وإنّ تناولنا ذلك من منظور نفسيّ وإيمانيّ يمكن أن نُرجع الأمر إلى أنّ القسّ تيري جونز ينتمي ثقافيّاً إلى زمن ما قبل أنسنة النصوص الدينيّة الكبرى، تماماً كما ينتمي إلى هذا الزمن جمهور عريض من المسلمين. فهذه النصوص خارج سياق الأنسنة تبقى مصدراً وحيداً لهويّة الجماعات التي تنتمي إليها وإطاراً وحيداً للإحساس بالانتماء وفرض الاعتراف. وهذا علامة دالة على فقر ثقافيّ في الحد الأدنى يُفقد أصحابه فضيلة التعدّد الهوويّ (pluralité identitaire) وإذ تكون هويّتهم واحديّة التكوين ومُشَبَّعة بأصالة دينيّة مغلقة، يكون مجرّد الاقتراب من هذا السياج الهوويّ (clôture identitaire) مشروع اعتداء. ومن داخل هذا الوضع تحرّك تيري جونز: أحرق المصحف لِيُسْقِطَ ذاك السياج الهوويّ تعويضاً عن سقوط بُرْجِيّ التجارة في نيويورك. والظاهر أنّه فعل ذلك لأنّه، بحكم انتمائه الأوحد إلى نصّ دينيّ أعلى<sup>(٣٠)</sup>، يعلم جيّداً ما يخلّفه حرق المصحف من تأثيرات عميقة في وجدان أمة صاغَتْ وجودها من وجود نصّها الأوحد هي أيضاً.

التسلّي بالآداب والفنون ونحوها.<sup>(٣٢)</sup> ويلخص عمر فرّوخ كلّ ذلك فيقول: "نستطيع أن نقول إنّ الثقافة عامّة والأدب خاصّة قد انحطّا في عهد المرابطين... إنّ دولة المرابطين كانت دولة بدويّة في الأكثر. وكان همّها تثبيت أركان الحكم. ثمّ إنّها كانت أيضاً دولة دينيّة سلفيّة لم تنظر بعين الرضا إلى الثقافة النظريّة، والفلسفيّة منها خصوصاً".<sup>(٣٣)</sup> ونتج عن ذلك أن قرب الأمراء الفقهاء واستمعوا إليهم وأخذوا منهم. وكان للفقه المالكيّ سلطة مذهبيّة/ إيديولوجيّة رسميّة، وسلطة توحيديّة سياسيّة.<sup>(٣٤)</sup> وما جعله كذلك قربّه إلى البساطة التي عليها الحياة المرابطيّة. قال ابن خلدون: "وأما مالك رحمه الله فاخصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس".<sup>(٣٥)</sup> ومما فسّر به ابن خلدون هذا الاختصاص العامل الثقافي/ الإناسي: "فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق. فكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكيّ غصّاً عندهم ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب".<sup>(٣٦)</sup> وبدا كتاب "إحياء علوم الدين" بما حواه من آراء في الفلسفة والتصوّف مستفزاً ما استقرّ عليه الشأن الثقافي والديني والسياسي في بلاد المغرب والأندلس. فانتصب فريق من الفقهاء يعارضونه ويؤلّبون الحاكم عليه "ولا سيما ابن حمدين فإنّه بالغ في ذلك حتّى كفر جميع من قرأه وعمل به. وأغرى به السلطان، واستشهد بالفقهاء، فأجمعوا على حرقه. فأخذ علي بن يوسف بفتياهم وأمر بحرقه. فأحرق بقرطبة. وكتب

إلى سائر بلاده يأمر بإحراقه. وتوالى الإحراق على ما ظهر منه ببلاد المغرب في ذلك الوقت"<sup>(٣٧)</sup>. وتذكر الأخبار أنّ ما وقع تجميعه من نسخ الكتاب كُذِّست في صحن جامع قرطبة وأحرقت "وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس".<sup>(٣٨)</sup> فأما حضور الأعيان فلاضفاء الطابع الاحتفالي الرسمي الذي مرّ ذكره. وأمّا الإحراق في المسجد فليبيان مخالفة الكتاب للدين ولاضفاء نوع من السلوك التقويّ الذي يتقرّب به الحارق إلى ربّه. وبهذا يكتسب الحدث بعداً تعبديّاً تتطهر به البلاد من "الإحياء" وكأنّه الإثم. هكذا يدخل إحراق "الإحياء" في باب الحرص على ضمان وحدة المذهب وهويّة معتنقيه تمييزاً لهم من هويّات مذهبيّة أخرى.

لكنّ التخلّص من "الفكر المختلف" عبر آليّة الحرق واقعاً تاريخيّاً يقابله في وجدان التائقين إلى مساحة رحبة تتعدّد فيها المعارف نوعاً من المقاومة وإن كانت سلبية تعويضيّة. فقد تواتر خبر (لا نخاله إلّا موضوعاً) مفاده أنّ "إحياء علوم الدين" انتقم من حارقيه بأن لبّى الله دعوة الغزالي وقد جاءه نبأ ما فعل بكتابه: "اللهم مزّق ملّكهم كما مزّقوه وأذهب دولتهم كما أحرّقوه".<sup>(٣٩)</sup> وكان من بين من حضروا في مجلس الغزالي وهو يدعو المهديّ الذي قال معقّباً على الدعاء: "على يديّ إن شاء الله"<sup>(٤٠)</sup>. فأجاب الغزالي: "اللهم اجعله على يده. فقبل الله دعاءه"<sup>(٤١)</sup>.

### الدوافع الذاتية للحرق

لئن كانت الأسباب الغالبة على إتلاف الكتاب

سياسية بالمعنى العام يُراد من ورائها تثبيت أركان السلطة القائمة، فإن أسباباً أخرى إن لم تكن، في ما يبدو، قد ألحقت بالكتاب أضراراً جسيمة تستحق أن يتوقف عندها الباحث لا لطرافتها فقط، ولكن لما تتضمنه من قيم ومعان.

تنقل الأخبار أن عدداً من الفقهاء وطلاب العلم يتجهون في الطور الأخير من حياتهم إلى التخلص مما كتبوا أو ملكوا من كتب إما حرقاً وإما حلاً في الماء أو دفناً تحت التراب. فيذكر على سبيل المثال أن أحمد بن أبي الحواري (ت ٥٢٦هـ) "طلب العلم ثلاثين سنة، فلمّا بلغ منه الغاية حمل كتبه كلّها وغرقها في البحر".<sup>(٤٢)</sup> ويمكن أن نستنتج من استخدام الصيغة الدالة على المبالغة في القيام بالفعل "غرق" الرغبة الجامحة في التخلص من الكتاب على نحو لا يبقى منه أثر قد يطفو إلى السطح فيكون سبباً في الانشغال به مرة أخرى. فالتغريق إمعان في النفي واستبعاد نهائي للكتاب مصدراً للحقيقة. وهو أيضاً ضرب من ضروب التطهر من "إثم" الكتاب و"رجسه". ودلالة الماء واضحة في هذا الباب. ومن يتمعن في الكلام الذي توجه به الحواري إلى كتبه وهو يغرقها يرى فيه نوعاً من طلب العذر أو الصفح من الكتاب الغريق ولكنه لا يتجاوز ذلك إلى التوقف عن فكرة التغريق وتنفيذها. قال: يا علم لم أفعل هذا تهاونا بك ولا استخفافاً بحقك ولكن كنت أكتب لأهتدي بك إلى ربي. فلمّا اهتديت بك إلى ربي استغنيت عنك"<sup>(٤٣)</sup>. وأضاف: "لا دليل على الله سواه. وإنما العلم يُطلب لأدب الخدمة"<sup>(٤٤)</sup>. وقريباً من هذا، فعل داود بن نصير

الطائي (ت ١٦٠ هـ). فقد انسحب من دنيا العلماء واختار طريق الخلاص الفردي فـ "عمد إلى كتبه ففرّقها في الفرات وأقبل على العبادة".<sup>(٤٥)</sup>

مثل هذه الوقائع تعني أن العلم الذي يُقبل عليه الناس ينبغي أن يكون مطيّة لمقصد آخر وهو الحقيقة. فإن ظفر بها طالبها بطل حينها التماس ما في الكتاب. بل يُصبح الكتاب عائقاً إن لم يتخلص منه. ونجد في غير سيرة الحواري أمراً شبيهاً بهذا. فحرق الكتاب إنما كان إنقاذاً للروح من الحرق. وبهذا تتفاضل منزلتنا الكتاب والروح. فمن أجل خلاص الروح يهون حرق الكتاب. كذلك جاء في سيرة أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ) أنه "جمع كتبه في ثور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك"<sup>(٤٦)</sup>. وهذا مسلك من مسالك المتصوفة تكفّ فيه قناة المعرفة التقليدية (الكتاب) عن أداء وظيفتها في الشوط الأخير من رحلة البحث وتُسبّل بقناة أخرى تقوم على الكشف والإلهام والفيض. ولا يخفى في كل هذا ما يلحق تجربة الخلاص الفردي أو الاعتناق من أسر المعرفة الزائفة من ضرر بسبب إتلاف ذاكرتها. فبقطع النظر عن الكسب الفردي الذي يناله الصوفي وهو الاتصال المباشر بالحق، فإن التطهر من "دنس" الكتاب بدعى أنه ليس موطناً للحقيقة يجعل من الموقف العرفاني الذي يتحرك المتصوّف داخله موقفاً سحرياً "يلغي العالم ليُجعل من أنه العارف الحقيقة الوحيدة. هو يعتبر العالم شراً كلّه ليُجعل من أنه ومن أنه وحده نفحة الخير الإلهي الوحيدة في هذا العالم"<sup>(٤٧)</sup>. ولمّا كان الكتاب دليلاً

على تعقل الإنسان الوجود وعقلته أو وسيلة إليه، فإنَّ التضحية به حرقاً أو تغريقاً تضحية بالعقل وإفقار للذاكرة. فالتجارب الفردية حين تنزل في التاريخ تصبح جزءاً من التجربة الإنسانية. وهي في وجه من وجوهها تسجيل لإمكان من إمكانات فهم الإنسان لمنزلته في الكون. والحكم عليها بالإلغاء يقلل إن قليلاً أو كثيراً من فرص دراسة سيرة الإنسان في الحياة دراسة متكاملة الأركان.

ولئن كان الذين أقدموا من المتصوفة على إتلاف كتبهم لم يتركوا نصوصاً تحفظ ذاكرة الحدث سوى ما نُقِلَ عنهم مشافهة، فإنَّ أبا حيان التوحيدي (٣١٠هـ-٤١٤هـ) يمثل أنموذجاً آخر لقصة الإنسان مع الكتاب. ترك لنا التوحيدي رسالة فريدة يفصل فيها أسباب حرقه كتبه. والناظر في ما تعلل به يراه خلاصة تجربة صعبة في الحياة أوصلت صاحبها إلى اليأس. وهذا خلاف المتصوفة. ففي رسالة جوابية عن رسالة جاءته من صديقه القاضي أبي سهل علي بن محمد يعدد الأسباب الداعية إلى إحراق كتبه فيجعل على رأسها سبباً فلسفياً دينياً يدور حول حتمية الفناء مصيراً. ويستحضر الآية "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" ليني عليها موقفاً يعقلن به مسألة حرق الكتب. وكأنَّ عملية العقلنة وحدها بدت قاصرة عن الإقناع فأرفدها بالإلهام حجة أخرى: "فما انبرئت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً وليالي، وحتى أوحى إليّ في المنام بما بعث راقداً العزم وأجد فاطر النية وأحيا ميت الرأي وحث على تنفيذ ما وقع في الرُوع

وتريع في الخاطر" (٤٨). ولا عجب من أن يمتلى خبر الاستخارة بمفردات فيها معاني التردد والقلق والجزع والحزن على ذهاب كتبه "النفيسة" إلى النار والماء. والحاصل منها أن التوحيدي يعز عليه أن تلقى سيرته مع الكتابة هذا المآل. ولذلك طفق يبحث عما يواسي به نفسه فراح يجمع الأعداء والأسباب: "هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلّى بحقيقته راغباً، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً" (٤٩).

وهكذا يصبح الحرق وسيلة عند التوحيدي يُكرم بها كتبه ويصونها من الوقوع بين يدي أناس لا يفقهون حقيقة العلم الذي تحويه: "شق عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها" (٥٠). ولم يُخف في رسالته أنه كان طامعاً في مجد تأتي به إليه كتبه وعيش رضي يصرفه عن "التكفف الفاضح عند العامة والخاصة". فقد كان يضطر إلى "بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم" (٥١). وحين يعجز الكتاب عن توفير ما يعصم كاتبه من مذلة السؤال وقد ذهب العمر فيه، فأى معنى للانتفاع به؟ كذلك رأى التوحيدي حكايته مع كتبه. عاشا معاً وغادرا معاً: "أصبحت هامة اليوم أو غد، فإنني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيدة أو رجاء لحال جديدة، ألسنت في زمرة من قال القائل فيهم:

نَرُوحُ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا نَرُوحُ وَلَا نَعْدُو" (٥٢)

## الكتاب منتصراً... حين تعجز المحارق عن تدمير الذاكرة

نعتقد إذن، في ضوء ما تقدّم، بأنّ مسألة إتلاف الكتب التي تبدو كأنّها من الموضوعات التي تنزّل في أطراف مسألة الكتابة والذاكرة ليست كذلك حقّاً. فالتدقيق فيها سبباً وسياًقاً ومشهداً يهدي الباحث إلى أنّها من صميمها وإن كانت كأنّها نقيضها النوعي. فظاهرة الإتلاف رافقت الكتابة ولاحقها وطاردها في ما يشبه قصّة الوجود حدوداً والعدم نفيّاً. لقد أنبأت ذاكرة التاريخ، من خلال الندوب الملازمة لها، أنّ عمليّات حرق الكتب كانت تخرق باستمرار هذه الذاكرة (أزمنة وأمكنة، ثقافات وحضارات). لذلك فلئن كان الكتاب خزّاناً من خزّانات الذاكرة، فالحرق يصنع ذكرى الكتاب وإنّ من جهات أخرى.

وبناء على كلّ هذا، نستطيع أن نقول إنّ ما هو أهمّ من مشهديّة الحرق حدثاً مادّيّاً تُنتهك به الكتابة ويُعتدى على الذاكرة هو الأفق الأخلاقي والتاريخي الذي يفتحه رغباً عنه ليكون شهادة تاريخيّة على المظالم التي كانت تلحق بالكتاب وما زالت، وعلى أنّ فراغات كثيرة كبرى أو صغرى جعلت التاريخ لقصّة الإنسان في الوجود إمكاناً موضوعيّاً ولكنّه لم يكن على الإطلاق الإمكان الوحيد. ولذلك فإنّ تلك الفراغات التي سبّبتها المحارق في نسيج قصّة الإنسان تفرض باستمرار على الباحثين المهتمّين بتاريخ الإنسانيّة استحضار الحرق قرينة للنسيان والحذف والإلغاء والتشويه. فقصّة التاريخ ترويه ذاكرة تؤكد محارق الكتاب أنّها تعرّضت لتلف كبير.

وفي ضوء التجربتين الذاتيتين هاتين: تجربة الصوفيّ المتطهّر من الكتاب، وتجربة العاجز بما كتب عن التّعمّ بزينة الحياة وبهجتها تتوقّف الذاكرة عن التمدّد وتجاوز التجربة المعيشة. لم يستطع الحواريّ أن ينتصر للكتاب رغم ما كان يتنابه من لوعة الفراق وهو على حافة الماء وخلاصة تجربته الأولى في المعرفة بين يديه يستعدّ للتخلّص منها. فقد ذكرت روايات أنّه "حمل كتبه إلى شطّ الفرات فجلس يبكي ساعة طويلة" قبل أن يُغرّقها. ونحن نرجّح أنّ البكاء إنّما كان بسبب الفراق الأبدي بين الرجل وما خطّت يمينه. ولولا أنّ "نداء الحقيقة" قد جذبته إليه ما فرط هذا التفریط المريع في ذاكرته فغرّقها. وعلى هذا الأساس، فنحن لا نعلم بعد أن دخل الأوّل في "أنوار الله" ما كان شأنه قبل ذلك، كما لا نعلم وقد قرّر الثاني أن يُميّت كُتبه بموته ما كان شأنه قبل ذلك. ولولا ما نجا رغباً عنهما، ما عرفنا عن التجربة الذاتيّة في شقيّها الروحيّ والنفسيّ شيئاً. وفي ذلك محنة أخرى للكتابة والذاكرة معاً.

التقنية العصريّة اليوم تستطيع باقتدار كبير أن تحرم "عشّاق الحرق" و"أعداء الكتاب" من التلذّذ بما يأتون من أفعال عدميّة. لم يكن الكاتب الجزائريّ عبد القادر رابحي مخطئاً وهو يعلّق على فتوى جزائريّة بإحراق أعمال أدونيس المُتّهم في إيمانه لما قال: "لا معنى للحرق في عصر الذاكرة الكونيّة".



أُتلف الإنسان كثيراً ممّا كَتَبَ بالنار والماء والتراب والهواء. وكأنّه بالوسائل التي استخدم، تلك التي اعتبرت أصل التكوّن والنشوء (العناصر الأربعة)، حوّل المكتوب إلى عدم مطلق. وهو عدم حقيقي. فالإناسيون (anthropologues) الذين رأوا أنّ لحظة امتلاك النار (بالمعنى البروموثيوسي أو غيره) هي لحظة بداية الحضارة الإنسانية، لا شكّ في أنّهم مهمومون وهم يرون أنّ النار التي دسّنت الحضارة هي نفسها النار التي تدكّ أمجادها.

ولكنّ الكتاب الذي يتعرّض باستمرار إلى المحارق يُخَيَّلُ إليّ كأنّما هو طائر الفينيق الذي كلّما احترق انبعث من رماده متجدّداً. ولا شكّ في أنّ التقنية العصرية اليوم تستطيع باقتدار كبير أن تحرم "عشاق الحرق" و"أعداء الكتاب" من التلذذ بما يأتون من أفعال عدميّة. فتحويل الكتابة إلى ذاكرة كونيّة أضحى يسير النوال. ولم يكن الكاتب الجزائري عبد القادر رابحي مخطئاً وهو يعلّق على فتوى جزائريّة بإحراق أعمال أدونيس المُتَّهَم في إيمانه لمّا قال: "لا معنى للحرق في عصر الذاكرة الكونيّة. إنّ حرق الكُتُب، وعلى غرار كونه مرفوضاً مبدئياً جملة

وتفصيلاً، فإنّ صورته الراهنة لم يعد لها معنى في عصرنا باعتبار مغزاها الذي لا يخرج عن رفض الآخر والحجر على أفكاره، وذلك بالنظر إلى ما يوفّره العصر، في جانبه الافتراضيّ التواصليّ، من أدوات توصيل وقدرة حفظ يصبح معهما حرق الكتب مجرد ملهاة لا معنى لها في عالم يؤسّس لذاكرة كونيّة متوفّرة لدى الجميع، وليس في وسع أحد أن يستأثر بها لوحده لأنّها ليست ملكاً لأحد".<sup>(٥٣)</sup> إنّ التقنية المعلوماتيّة انتصار كبير للكتابة مداداً ومادّة من خلال تحويلها إلى أفعال مرقمنة.

ولكنّ انتصاراً كبيراً للكتابة نظف به إن افتحنا على معقول وجوديّ آخر وهو المعقول الدينيّ الذي يوفّر ملاذاً آمناً للكتاب والذاكرة معاً. فهو يمتلك على نحو أبديّ سجلاً غير قابل للتلف كأنّه شبيه بما يُصطَلَح عليه اليوم "القرص الصلب" (disque dur) الذي من شأنه أن يحرم أعداء الكتاب والذاكرة من التّنعّم بالفرار من القصاص. سيطاردهم الكتاب والذاكرة وسينتصران عليهم: "وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا"<sup>(٥٤)</sup>. ويُقال له: "اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا"<sup>(٥٥)</sup>



## الهوامش

\* أستاذ محاضر متخصص في قضايا الفكر العربي الحديث

والمعاصر. يعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، تونس. ظهر له من الكتب: "الهوية سؤال الوجود والعدم: دراسة تحليلية نقدية لعلاقة الأنا بالآخر" (٢٠٠٦)، "الدولة الوطنية وسؤال الشرعية: من عوائق الاستخلاف إلى آفاق الاختراق" (٢٠٠٨).

1 Jorge Luis Borges, Le livre, (dans Œuvres complètes, II), Bibliothèque de La Pléiade, Paris, 1999, p: 736.

٢ ألف ناصر الحزيمي كتيباً خصّصه لحرق الكتب في التراث العربي: "حرق الكتب في التراث العربي"، منشورات الجمل، لندن، (د.ت).

3 UNESCO, Mémoire du monde : Mémoire perdue- Bibliothèques et archives détruites au XXe siècle Paris 1996, préface, p : 2.

4 Ibid.

5 « 1.1 L'Éternel appela Moïse ; de la tente d'assignation, il lui parla et dit :  
1.2 Parle aux enfants d'Israël, et dis-leur : Lorsque quelqu'un d'entre vous fera une offrande à l'Éternel, il offrira du bétail, du gros ou du menu bétail.  
1.3 Si son offrande est un holocauste de gros bétail, il offrira un mâle sans défaut ; il l'offrira à l'entrée de la tente d'assignation, devant l'Éternel, pour obtenir sa faveur.  
1.4 Il posera sa main sur la tête de l'holocauste, qui sera agréé de l'Éternel, pour lui servir d'expiation ». Ancien Testament, Lévitique 1.

٦ راجع هذا الاستخدام في كتابه:

Histoire universelle de la destruction des livres: des tablettes sumériennes à la guerre d'Irak, éd. Fayard, Paris, 2008.

٧ للتوسع:

Annie Molinié et Jean Paul Duviols, Inquisition d'Espagne, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, 2003.

Grégory Woimbee, L'Église et l'inquisition, éd. Artège, Paris, 2009.

8 Lucien Polastron, Livres en feu : histoire de la destruction sans fin des bibliothèques, éd. Denoel, Paris, 2004, p: 217.

9 William Blades, Enemies of books, IndyPublish.com, USA, 2003.

10 Gaston Bachelard, La psychanalyse du feu, Éditions Gallimard, Paris, 1992, p : 17.

11 Ibid, p : 21.

١٢ فمن ذلك على سبيل المثال قصة رواها ابن حزم مفادها أن امرأة تعلقت بشاب ودعته إلى نفسها فما منعه عنها إلا النار يحترق بها:

"... وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه في السراج فتشقق ثم قال: يا نفس ذوقي هذا. وأين هذا من نار جهنم. فهال المرأة ما رأته. ثم عاودته... فعاد إلى فعلته الأولى. فانبج الصباح وسبابة قد اصطلمتها النار". راجع الخبر في: طوق الحمامة في الألفة والألاف، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، ١٩٨٩، ص: ٢١٥-٢١٦. (أشكر زميلي الأستاذ محيي الدين حمدي الذي لفت نظري إلى هذا النص).

وقد يكون العقاب بالإحراق نابعاً من رغبة في الانتقام غير المنضبط ودليلاً على ما في النار من أبعاد رمزية: ينقل أبو الفرج الأصفهاني خبراً عن مجنون ليلي: رأيت ظلياً مرة فتأملته وذكرت ليلي فجعل يزداد في عيني حسناً، ثم إنه عارضه ذئبٌ وهرب منه حتى خفياً عني... فوجدت الذئب قد صرعه وأكل بعضه، فرميته بسهم فما أخطأت مقتله، وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه، ثم جمعته إلى بقايا شلوه، ودفنته وأحرقت الذئب". راجع ذلك في: الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨، ص: ٤٨. (أشكر زميلي الأستاذ محمد الحبو الذي لفت نظري إلى هذا النص).

١٣ راجع ذلك في: مجلة «Influencia». (www.influencia.net/.../

٢٠ edito, brule-livres-finit-aussi-par-bruler-hommes).

نوفمبر ٢٠١١.

14 Jens O. Petersen, « Which Books Did the First Emperor of Ch'in Burn ? On the Meaning of *ofpai chia* in Early Chinese Sources », in: Monumenta Serica, 43, 1995, p. 1-52.

١٥ راجع بعض التفاصيل المهمة في:

Nicolas Zufferey, Le Premier Empereur et les lettrés.. L'exécution de 212 avant J.-C. in : revue, Etudes chinoises, vol. XVI, n° 1, printemps 1997 pp : 61-65.

١٦ راجع على سبيل المثال:

Louise Chipley Slavicek, The great wall of China, Chelsea House Publishers, USA, 2005.

أنظر على نحو خاص: الفصل الثالث: "China's first great wall: the wall of Qin Huang Di", pp: 22-40.

17 UNESCO, op. cit. (patrie1, p : 2).

18 Mempo Giardinelli, Autodafé de livres en Argentine : 24 tonnes de feu et de mémoire, il ya 33 ans, traduit de l'espagnol pour EL Correo par : Estelle et Carlos Debiasi, EL correo. Paris, le 26 juin 2013.

19 Ibid.

20 Fernando Baez, Histoire universelle de la destruction des livres, éd. Fayard, Paris, 2008. p :

٢١ ابن النديم، الفهرست، الجزء الأول، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٩، ص: ٥٩.

- ٢٢ نفسه.
- ٢٣ نفسه، ص: ٦١.
- ٢٤ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ص: ٣٣.
- ٢٥ أبو الفرج الملطبي، تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ص: ١٧٦.
- ٢٦ نفسه.
- ٢٧ راجع هذه النقاط في موقع كنيسة تيري جونز الرسمي: «Dove World Outreach Center»
- ٢٨ من حوار أجرته معه قناة الـ CNN. راجع مقاطع منه في: Patricia Briel, Un groupe évangélique américain invente le Coran. Le monde s'inquiète, in: Le Temps (Suisse), mercredi 08 septembre 2010.
- 29 Terry D. Jones, Islam is of the Devil, Creation House, USA, 2010.
- ٣٠ يستخدم محمد أركون هذه العبارة (النصوص الدينية العليا) حين يتحدث عن موقع النصوص الدينية في حياة الجماعات المؤمنة. راجع مثلاً كتابه: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل.. نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقبي، بيروت، ١٩٩٩، ص: ٢٢.
- ٣١ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس: عصر الرابطين والموحدين)، الجزء الخامس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥، ص: ٣٦.
- ٣٢ ولكننا لا نعدم اتجاهات أخرى ترى أن الرابطين لم يضيّقوا على الإبداع. للتوسّع راجع: فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري الرابطين والموحدين ٤٨٤هـ-٦٧٠هـ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٢.
- ٣٣ عمر فروخ، المرجع السابق، ص: ٣٧.
- ٣٤ حول هذه المسألة، أنظر: سعد غراب، المذهب المالكيّ عنصر اتّلاف في المغرب الإسلاميّ، ضمن كتابه: العامل الدينيّ والهويّة التونسيّة، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٩٠.
- ٣٥ ابن خلدون، المقدمة، الجزء الثاني، الدار التونسيّة للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، ١٩٨٤، ص: ٥٤٦.
- ٣٦ نفسه.
- ٣٧ \_\_\_\_\_، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص: ١٠٤.
- ٣٨ ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٠، ص: ٧١.
- ٣٩ نفسه، ص: ٧٣.
- ٤٠ نفسه.
- ٤١ نفسه.
- ٤٢ محمد بن أبي يعلى الفراء، طبقات الخنابلة، الجزء الأول، حققه وقدم له وعلق عليه عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربيّة السعوديّة، الرياض، ١٤١٩هـ. ص: ١٩١-١٩٢.
- ٤٣ نفسه.
- ٤٤ نفسه.
- ٤٥ أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد السابع، مكتبة الخانجي (القاهرة) ودار الفكر (بيروت)، ١٩٩٦، ص: ٣٣٦. وجاء في رواية أخرى: "ثم ترك طلب الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه". ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ١٥٣.
- ٤٦ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء الخامس، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣، ص: ١٩٣١.
- ٤٧ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليليّة نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربيّة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٣٧٩.
- ٤٨ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مرجع سابق، ص: ١٩٢٩.
- ٤٩ نفسه، ص: ١٩٣٠.
- ٥٠ نفسه.
- ٥١ نفسه.
- ٥٢ نفسه.
- ٥٣ عبد القادر رابحي، لا معنى للحرق في عصر الذاكرة الكونية، جريدة النصر (يومية إخبارية وطنية/الجزائر)، الإثنين ٣٠ ديسمبر ٢٠١٣.
- ٥٤ الإسراء: ١٣/١٧.
- ٥٥ الإسراء: ١٤/١٧.

## المراجع

١/ العربية:

- أركون محمّد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل.. نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٩.
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨.
- الأصفهاني أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد السابع، مكتبة الخانجي (القاهرة) ودار الفكر (بيروت)، ١٩٩٦.
- الجابري محمّد عابد، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألف، مؤسسة سعيّدان للطباعة والنشر، تونس، ١٩٨٩.
- الحموي ياقوت، معجم الأدباء، الجزء الخامس، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.
- ابن خلدون، المقدمة، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، ١٩٨٤.
- خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- رابحي عبد القادر، لا معنى للحرق في عصر الذاكرة الكونية، جريدة النصر (يومية إخبارية وطنية/ الجزائر)، الاثنين، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٣.
- الفراء ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، الجزء الأول، حققه وقدم له وعلّق عليه عبد الرحمان بن سليمان العثيمين، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٩هـ.
- غراب سعد، المذهب المالكي عنصر ائتلاف في المغرب الإسلامي، ضمن كتابه: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٠.
- فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس: عصر الرابطين والموحدين)، الجزء الخامس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥.
- كوكبة فاتن، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين ٤٨٤هـ - ٦٧٠هـ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٢.
- ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٨.

- Le Temps(Suisse), mercredi 08 septembre 2010.
- Jones Terry, Islam is of the Devil, Creation House, USA, 2010.
  - Lavallée Joseph , Histoire des Inquisitions religieuses d'Italie d'Espagne et de Portugal, Depuis leur origine jusqu'à la conquête de l'Espagne, Impr.de Richomme- Capelle et Renand, Libr.-Commision, 1809.
  - Mempo Giardinelli, Autodafé de livres en Argentine : 24 tonnes de feu et de mémoire, il ya 33 ans, traduit de l'espagnol pou EL Correo par : Estelle et Carlos Debiasi, EL correo. Paris, le 26 juin 2013.
  - Molinié Annie et Jean-Paul Duviols ,Inquisition d'Espagne, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne, 2003.
  - Petersen Jens, « Which Books Did the First Emperor of Ch'in Burn ? On the Meaning ofpai chia in Early Chinese Sources »,in: MonumentaSerica,43, 1995.
  - Polastron Lucien, Livres en feu : histoire de la destruction sans fin des bibliothèques, éd. Denoel, Paris, 2004.
  - Slavicek Louise Chipley, The great wall of China, Chelsea House Publishers, USA, 2005.
  - UNESCO, Mémoire du monde : Mémoire perdue - Bibliothèques et archives détruites au XXe siècle Paris, 1996.
  - Zufferey Nicolas, Le Premier Empereur et les lettrés.. L'exécution de 212 avant J.-C. in : revue,Etudes chinoises, vol. XVI, n° 1, printemps 1997.
  - Woimbee Grégory, L'Église et l'inquisition, éd. Artège, Paris, 2009.
  - المرّاكشي ابن القُطّان ، نُظْمُ الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠.
  - الملطي أبو الفرج ، تاريخ مختصر الدول، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.
  - ابن النديم، الفهرست، الجزء الأوّل، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٩،
  - —، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩
- ٢ / الأجنبية
- Ancien Testament, Lévitique1.
  - Bachelard Gaston, La psychanalyse du feu, ÉditionsGallimard, Paris, 1992
  - Baez Fernando, Histoire universelle de la destruction des livres, éd. Fayard, Paris, 2008.
  - Blades William , Enemies of Books, IndyPublish.com, USA, 2003.
  - Borges Jorge Luis,Le livre, dansŒuvrescomplètes, II, Bibliothèque de La Pléiade, Paris, 1999.
  - Briel Patricia, Un groupe évangélique américain veut brûler le Coran. Le monde s'inquiète, in :

